المحاضرة الأولى: الشعر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا

أولا: بلاد العرب جغرافيا

جزيرة العرب أو شـــبه جزيرة العرب، أكبر شـــبه جزيرة في العالم، تقدر مســـاحتها 3ملايين كلم[2]، وكانت في الأزمنة الغابرة الموغلة في القدم مزروعة عامرة بالسكان، إذ تأتيها الرياح الغربية الشبعة بالغيوم، والتي تمطر مرتفعات سورية وفلسطين، فتمطر الجزيرة أيضا مطرا غزيرا تجري به السيول في الأودية الكثيرة والأمطار الغزيرة التي هي سبب الحياة فيها.

ويتميز ســـطح الجزيرة بســـهل منحدر من الغرب نحو الخليج العربي ومنخفضـــات محاذية لساحل البحر الأحمر، ترتفع ارتفاعا شاهقا إذ يبلغ في الشمال عند مدين تسعة آلاف قدم، ويشمخ في الحجاز جبل السراة الذي يبلغ عشرة آلاف قدم، وفي اليمن جنوبا اثني عشر ألف قدم، وتنحدر الأرض انحدارا تدريجيا نحو الشـــرق، وانحدارا فجائيا قصـــيرا نحو الغرب حيث البحر الأحمر.[1]

وترتفع هضـبة نجد في المنطقة الشـمالية الوسـطى حوالي 2500 قدم، وفيها سـلسـلة جبال تعرف بجبال شـــمر، وأهم قمها جبل "أجأ" وهو من الغرانيت الأحمر، ويبلغ ارتفاعه 5550 قدما ما فوق سطح البحر، وهناك جبال أخرى تمتد وراء السهول الساحلية من جهات الجزيرة الثلاث تتفاوت في الارتفاع أعلاها الجبل الأخضـــر الذي يبلغ 9900 قدم، وهو الموضع الوحيد المرتفع من الناحية الشرقية هي منطقة الانحدار.

أما بقية الأرض غير الجبال والهضـاب، فإنها في الغالب صـحاري ودارات، والدارات سـهول رملية مسـتديرة بين التلال تسـتقر تحت سـطحها المياه، منها بادية الشـام التي يعرف قسمها الجنوبي بالجماد، وكذلك بادية العراق التي تعرف ببادية السّماوة.[2]

---

[1] – يحي الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط:5، 1407هـــ–1986م، ص: 11.

[2] – يحي الجبوري، الشعر الجاهلي، ص: 12.

ثانيا: الأدب العربي تاريخيا

1-تقسيمات تاريخ الأدب العربي وعصوره:

يرى شوقي ضيف أن المؤرخين للأدب العربي قسموا العصور الأدبية إلى:

أ- عصر الجاهلية أو ما قبل الإسلام.

ب- العصر الإسلامي من ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ-750م، وهو العصر الذي تكونت فيه الدولة العربية وتمت الفتوح الإسلامية.[3]

ج- العصر الثالث هو عصر العباسيين أو العصر العباسي ويستمر إلى بغداد في يد التتار سنة 656هـ-1258م.

د- العصر الحديث وهو عصر الدول والإمارات، فقد تفككت فيه أوصال الدولة العباسية، وظهرت إمارات وخلافات ودول كثيرة كإمارات الفرس في إيران وما وراءها، وسيف الدولة الحمداني في حلب، والفاطميين ثم الأيوبيين والمماليك والعثمانيين في مصر، والأمويين ثم ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ومن خلفوهم في الأندلس.

وحري أن يبحث الأدب العربي في هذا العصر الرابع ويؤرخ في كل إقليم على حدة، فيكون هناك جزء لإيران والعراق وجزء لمصر والشام والجزيرة العربية، وجزء للأندلس وبلاد المغرب.

ويرى شوقي ضيف أن هذا التقسيم لعصور الأدب العربي أكثر دقة ومطابقة لتطوره وللظروف المختلفة التي أثرت فيه، فإن بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجري تحتل المكانة الأولى في الحركات الأدبية، بل لقد نافستها في الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها في النهوض بالشعر والنثر تفوقا واضحا.[4]

---

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط: 11، (د.ت)، ص: 14.

[4] - المرجع نفسه، ص: 15.

2-طبقات الشعراء:

تم تحديد طبقات الشعراء القدامى إلى: جاهلين، ومخضرمين وإسلاميين ومحدثين.[5]

أ-طبقة الشعراء الجاهليون: أمرهم مشهور وذائع، وهم الذين نشأوا في جزيرة العرب قبل الإسلام من الشعراء والبلغاء وأرباب الفصاحة واللّسن والبيان، وهذه الكلمة جمع لكلمة جاهلي من الجاهلية المأخوذة من الجهل ضد العلم، لما كان عليه العرب قبل الإسلام من أمية ظاهرة، أو من الجهل ضد الحلم بمعنى السّفه والطيش وسرعة الغضب لما كانوا عليه من الإسراع إلى الانتقام والأخذ بالثأر وشن الحرب لأتفه الأسباب.[6]

ب-طبقة المخضرمين: وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام.

ج-طبقة الإسلاميون: نشأوا في الإسلام وتأدبوا بآدابه وقالوا الشعر، متأثرين بالعوامل الجديدة التي نشأت مع الحياة الإسلامية، فهؤلاء إسلاميون يغلب عليهم أن يكونوا قد عاشوا في دولة بني أمية واستظلوا بظلها.

والشعراء الذين تأثروا بالإسلام ومبادئه قد بهرتهم بلاغة القرآن وفصاحته، فانقطعوا عن قول الشعر وعقمت ألسنتهم وبلاغاتهم عن إنشاده، ولم يستمر على صلة ينابيعه، إلا هؤلاء الذين بعدوا عن روح الإسلام ولم يتأثروا به وعاشوا في عزلتهم في البادية، فلما سكنت عنهم هذه الروعة بدأوا في نظم الشعر، ولم يعودوا إليه إلا وقد انتهى هذا العصر وبدأ عصر جديد هو العصر الأموي الحافل.

فكلمة "الإسلاميون" إذا تطلق على الشعراء الأمويين لأنهم عاشوا في ظلال الإسلام وتأثروا بمبادئه وصاغوا حياتهم وفق مبادئه الخالدة إلى حد كبير.[7]

---

[5] – للاستزادة والتعرف على طبقات الشعراء وأسمائهم وحياتهم، ينظر: محمد ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرح: أبو فهد محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، الناشر، دار المدني بجدة، السعودية، المجلد الثاني، السّفر الثاني.

[6] – محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل، بيروت-لبنان، 1410هـ-1990م، (د.ط)، ص: 10.

[7] – المرجع نفسه، ص ص: 10-11.

ثالثا: فنون الشعر العربي القديم

1-الفخر:

هو من أغراض الشـــعر العربي الذي جادت به قرائح الشـــعراء واعتدادهم العظيم بأنفســـهم، فتمثلت عواطفهم الفطرية، وعجبهم بأعمالهم وترفعهم عن غيرهم من ســـائر بني آدام، كقول السموأل مفتخرا بوفائه:[8]

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ماخان أقوام وفيت

وقول عمر بن كلثوم، والحارث بن حلزة، يتنازعان المفاخر أم عمرو بن هند مالك الخيرة، فيقول الأول:[9]

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقرّ الخسف فينـــا

ألا لا يجهلن أحد علينـــــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إذا بلغ الفطـــام لنا صبـي تخرّ له الجبابر ساجدينـــا

فيجيبه الثاني:[10]

أيها الناطق المـــرقش عنـــــا عند عمرو وهل لذاك بقاء

هل علمتم أيام ينتهب النـــــــا س غوار لكل حيّ عـــواء

إذا رفعنا الجمال من سعف البحرين سيرا حتى نهانا الحســـاء

ليس ينجي الذي يؤائـــل منـــا رأس طود وحرة زجـــلاء

وهذه القصيدة مثال حي لصفة الخطيب أو المحامي أمام الملك، بما فيها من استمالة خاطر الحاكم بطلف، ورد حجة الخصـم، وبسـط حجج الخطيب ومفاخرة بترتيب لا يسـمع المعاند إنكاره.[11]

---

[8] – فؤاد أقرام البستاني، الشعر الجاهلي، نشأته–فنونه–صفاته، المطبعة الكاثوليكية، بيروت–لبنان، 1937م، (د.ط)، ص ص: 20–21.

[9] – المرجع نفسه، ص: 21.

[10] – المرجع نفسه، ص: 21.

[11] – المرجع نفسه، ص: 22.

والافتخار كما يقول ابن رشيق: «هو المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح في المدح قبل في الافتخار...»[12]، حيث ظهر في الجاهلية لقيامه على مبدأ الفخر بالقبيلة وبالقوم، وهو ضرب من الحماسة يعني التغني بالفضائل والمثل العليا والفِعال الطيبة، ويرد على ضربين: ضرب يركز على الفضائل المادية من قوة ونسب ومال وأولا، وآخر يركز على الفضائل النفسية من كرم وحلم وشجاعة وأشهر ما ورد كما ذكرنا سابقا في معلقة عمرو بن كلثوم التي مطلعها:[13]

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

2-الغزل:

هو من فنون الشعر العربي التي ارتبطت بمشاعر ناظميه ومتلقيه على السواء، وقد عرف تطورات وتغيرات عبر تاريخ العرب، وتلوّن بألوان الحياة العربية والأذواق لها.

ويقوم أكثر الغزل على الوصف والتشبيب، ويحمل بعض ذكريات المغامرات الغرامية، التي يتخللها الحوار، ولكنه لم يظهر فنا مستقلا بذاته، حيث كان عند شعراء الجاهليين غرضا من الأغراض المتعددة التي تشتمل عليها قصائدهم، إذ يستهل به ومنه يتخم التنقل إلى غير من المعاني، فقد «أدرك شعراؤنا في العصر الجاهلي بالحس والحدس الصادقين، فضل الغزل على الأغراض الأخرى، فجعلوه مفتتح القصائد ليلفتوا إليهم الأسماع، ولينفذوا من الأسماع إلى القلوب بلا عناء ولا استئذان، وربطوا الطلل بالمحبوبة، فكان هذا الربط أصدق الأدلة على وفائهم للوطن والسّكن، وعلى جعلهم المرأة أقوى الوشائج التي تشدهم إلى منابتهم في الحلّ والترحال».[14]

---

[12] – أبو علي الحسن ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تقديم وشرح: صلاح الدين الهواري، وهدى عودة، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان، 2002م، (دط)، 162/2.

[13] – أبو زكرياء يحي علي التبريزي، شرح القصائد العصر، دار الطباعة الميسرية، 1352هـ، ص: 217.

[14] – سعاد ترشاق، محاضرات في النص الأدبي القديم، شعرا، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف-الجزائر، 2016-2017م، ص: 11.

كما يقوم الشـاعر في القصـيدة الغزلية بوصـف الإنسـان بالجمال أي بحسـن القد، وبياض الوجه، وسواد الشعر، ومن أشهر الشعراء الذين قالوا الغزل البدوي: عنترة بن شداد، والغزل الحضري: امرئ القيس الكندي، وعمر بن أبي ربيعة التغلبي...

3-الهجاء:

هو نزع الصفات الحميدة عن المهجو، ووصفه بالدناءة والجبن والبخل، وسلب الآخر كل معاني الكرم والشـــجاعة والجود والغنى وغيرها، لذلك اعتبره النقاد قديما نقيضـــا للمدح والفخر لقيامه على مبدئ سلب المهجو كل فضيلة.

ومن أشـهر الهجائيين نجد: جرير والفرزدق، والحطيئة، هذا الأخير وقعت معه حادثة مع الخليفة عمر بن الخطاب لهجائه الزبرقان بن بدر، قال له: «إيام والهجاء المقذع، قال: وما المقذع يا أمير المؤمنين؟ قال: المقذع أن تقول: هؤلاء أفضـل من هؤلاء وأشـرف، وتبني شعرا على محد لقوم وذم لمن تعاديهم...».[15]

4-المديح:

هو من موضوعات الشعر العربي القديم قوامه الإشادة بالفضائل، خاصة ما كان منه بعيدا عن التملق والتكسـب، لصـدوره عن عاطفة صـادقة نحو الممدوح، وهو أيضـا وصـف الشخص بشرف الأصل، والكرم وسائر الصفات الحميدة، وأشهر المداحين: النابغة، الأعشى، زهير بن أبي ســلمى، هذا الأخير خلدته مدائحه الصـــادقة فكان ســبب تفضـــيل عمر بن الخطاب رضي الله عنه له على باقي شعراء عصره.

ومن مدائحه في ساعيا السلام الحارث بن عوف وهرم بن سنان قوله:[16]

سعا ساعيا غيط بن مرة بعدما تنزل ما بين العشيرة بالـــــدم

يمينا لنعم السيدان وجدتـــما على كل حال من سجيل ومبرم

---

[15] – ابن رشيق، العمدة، 189/2.

[16] – التبريزي، شرح المعلقات العشر، ص ص: 211-212.

لكن وقع هذا المدح الابتدال أكثر بما نفخ فيه من مبالغة وإغراق في العصـــور المتأخرة، لما آلت الأمور إلى الخلفاء والأمراء في العصرين الأموي والعباسي، فصار المدح ميدانا يتبارى فيه الشعراء عند أبواب الساسة والقادة يتنافسون فيما بينهم طمعا ورغبة، وصار أكثر الشـــعراء ينظمون فيه[17]، وظهرت أســـماء كثيرة ارتبطت بالبلاد أمثال جرير والفرزدق والمتنبي، ويعد الأخير ظاهرة من حيث خصـــوصـــية مدحه وأكثره كان في ســـيف الدولة الحمداني، من ذلك يقول:[18]

لكل امرئ من هدره ما تعـــودا وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وأن يكذب الإرجاف عنه بضدّه ويمسي لما تنوي أعاديه أسعـــــــدا

5-الرثاء:

هو من أغراض الشـعر العربي القديم، يتضـمن في معانيه التعبير عن الفقد والحزن، وهو ذكر الميت وصـــفاته الحميدة ومن أشـــعرهم: المهلهل بن ربيعة التغلبي في رثاء أخيه كليب وائل، ورثاء الخنساء في أخيها صخر، حيث تقول:[19]

قذى بعينك أم بالعيـــــــن عـــوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

كأن عيني لذاكره إذا خطـــــــرت فيض على الخدين مـــــــدرار

تبكي لصخر هي العبرى وقد ولهـت ودونه من جديد الترب أستـــــار

تبكي خناس وما تنفك ما عمـــــرت لها عليه رنين وهي مقتـــــــار

وإن صخرا لتأتـــم الهداة بـــــــه كأنـــه علم فـــي رأســـه نـــار

وأما معاني الرثاء فأغلبتها بكاء الشـجاعة والرفق واللين والكرم وطيب الأرومة والحلم ورجاحة العقل، وهذه الصفات اجتمعت في رثاء الخنساء، حيث تقول:[20]

---

[17] – سعاد ترشاق، محاضرات النصر الأدبي القديم، ص: 16.

[18] – ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح: عبد الرحمن الرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، (د.ط، د.ت)، 03/2.

[19] – ديوان الخنساء، دراسة وتحقيق: إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، مصر، ط: 1، 1405هـ1985م، ص: 49.

[20] – المرجع نفسه، ص ص: 68–69.

مرّ الحوادث ينقاد الجليد لهـــــا ويستقيم لها الهيّبابة البـــــــوم

قد كان صخر حليدا كاملا برعــا جلد المريرة تنميه الســــــلاجيم

فأصبح اليوم في رمس لدى جدث وسط الضريح عليه الترب مركوم

رابعا: خصائص الشعر الجاهلي

1-الشعر الجاهلي شعر غنائي:

إذ أنه نفسـية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسـيس سـواء حين يتحمس الشـاعر ويفخر، أو حين يمدح ويهجو، أو حين يتغزّل أو يرثي، أو حين يعتذر ويعاتب، أو حين يصـف أي شـيء مما ينبث حوله في جزيرته، فهو كان يغني غناء، أي أن الشـعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه وأبرزهم: الأعشى، السليك بن السلكة، وعلقمة بن عبده الفحل.

2-الشعر الجاهلي شعر فطرة وبداهة:[21]

يتناول الشـاعر الجاهلي ما سَـهُلَ من المعاني، ويسـر من بيئته، ولا يجهد نفسـه في التماس المعاني العميقة فهو ســطحي في حياته وفي تفكيره، والجاهلي صـــادق في معانيه يتحرى الحقيقة والواقع.

3-الأخيلة:

يعتمد فيها الشـاعر الأسلوب البسيط يستعمل فيها التشبيه الذي يبين فيه وجه الشبه وكذا الاستعارة، حيث يجعل الشاعر التصوير أصلا من أصول صناعة الشعر، وهي صورة صادقة.

[21] – للاسـتزادة ينظر: فؤاد أقرام البسـتاني، الشـعر الجاهلي، نشـأته-فنونه-صـفاته، ص ص: 14-40، وينظر: يحي الجبوري، الشعر الجاهلي خصـائصـه وفنونه، ص: 189، وينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص ص: 183، 226.

4-الشعر من حيث المبنى:

أسلوب الشاعر خطابي في أكثره، عبارته متينة بلا تخل ألفاظه من صلابة وخشونة- في أحيان كثيرة-، كما أننا نجد في الشعر الجاهلي بعض الغموض، وذلك يأتي من الإيجاز والاكتفاء بالتلميح.

5-الموسيقى الشعرية:

كان الشـــعر الجاهلي ينظم بأوزان طويلة التفاعيل، كما أنه لم يغفل الأوزان اللّينة في المواقف العاطفية التي تقتضي رثاء أو فخرا أو حماسة أو غزلا.

6-القيمة التاريخية:

للشعر الجاهلي قيمة تاريخية عظيمة فهو وثيقة من أهم الوثائق التاريخية يطلعنا عن عادات وتقاليد العرب، وأحوال الجزيرة العربية الطبيعية والجغرافية والاجتماعية، باســطا إلينا مآثرهم وأيامهم وأنســـابهم وكل ما ألموا به من علوم ومعارف، فهو كما يقال: (أنه ديوان العرب).

7-أسلوب القصيدة كان مفككا في البناء، حيث يبدأ الشاعر البدوي بالوقوف على الأطلال، يرثي الأحبة، ويهتم بذكر صاحبته أو امرأته، ثم بعدها ينتقل إلى وصف ناقته التي هي بمثابة الرفيق والأنيس فيصفها بالقوة والسرعة، ووصف ما يعترضه في طريقه، وبعدها يدخل في صـــلب القصـــيدة، فقد تكون دعوة للقتال أو الاعتذار أو المدح، وهذا الانتقال من غرض إلى غرض يكون فجائي في أكثر الأحيان.

لقد تميز العصـــر الجاهلي بالتنوع الثقافي والجغرافي، فشـــبه جزيرة العرب ومناخها الطبيعي والمتميز وبيئتها الصحراوية الفاتنة، إلى الشعر وما نقله إلينا من مشاعر أصحابه، وصور حية التي سادت الحياة العربية والبادية، وعوامل كثيرة ساعدت الشعراء على تفجير مواهبهم وطاقاتهم الإبداعية، فنظموا في مختلف الأغراض الشـــعرية، وتلوّنت حياتهم عبر العصور، فكان الشعر بحق مرآة عاكسة لها، كيف لها وهو-الشعر- ديوان العرب المترجم لأيامهم وتاريخهم وحياتهم في مختلف الجوانب.